عنقاء بلا رماد

هدير السيد

المقدمة

توارت بأعين دامعة خلف إحدى أشجار الحي الراقي كما تعرفه، تتأمل الخراب الذي حل بتلك الغرفة الخلفية اللعينة التي طالما كرهتها، بينما تتعالى ألسنة اللهب مشكّلة سحابة دخانية سوداء فوق الرؤوس، رجال الإطفاء يحاولون إخماد الحَريق باستماتة، بينما ينتظر رجال الإسعاف بصبر إنهاء مهمتهم، لا تعلم كم من الوقت مرَّ عليها وهي على حالتها، تتلفت حولها خشية أن يعي وجودها أحد، ارتجف جسدها، لكنها تحاملت عليه، أخذت تطالع بعينيها الجثة الأولى التي أخرجها رجال الإطفاء، لمحتْ هيئته الضخمة وطوله المديد اللَذَيْن أكدا لها أن ما كانت تظنه دربًا من الخيال هو حقيقة مؤكدة، ابتسامة شاحبة شقت ملامحها لوهلة إلا أنها ماتت على شفتيها عندما خرجت الجثة الثانية! تأملتها بأعين لا حياة فيها وعقلها يستوعب أن تلك الجثة الأخيرة لها.....

(خلف الأبواب المغلقة الكثير من الحكايا، بعضها مكرر وبعضها نظنه دربًا من خيال، كل ابن آدم خطَاء، فمن منا سيلحق بركب التوابين!!)

أغلق باب سيارته خلفه بانزعاج من ذلك السائق الغبي الذي يصر على قيادة سيارة سيده، هكذا هو جده على الدوام يفرض سيطرته على كل الأمور

المحيطة به كما الأشخاص؛ زفر بضيق وهو يرمق الأخر بنظرة اعتذار لما سيلاقيه حتمًا من عقاب بسبب فعلته لكنه يحتاج للبقاء بعيدًا عن أجواء القصر الخانقة، دومًا ما كان قصر جده الذي قضى فيه طفولته حملًا ثقيلًا يجثم فوق أنفاسه إلا أنه فور وفاة والده، قرر تركه خلفه والبقاء بجوار والدته التي لم تتقبل تحكمات والد زوجها الراحل في حياتها وكذلك أبنائها، هو فقط من كان أجبن من مخالفة أوامر جده الصارمة.

"عمار أخاه الأصغر وسبب عودته القسرية"

ترقرقت الدموع في عينيه وهو يتذكر مشهدًا لن ينساه ما حييَ، جثة أخيه المتفحمة راقدًا أمامه بلا حراك على إحدى طاولات المشرحة، اعتصرت قبضتاه مقود السيارة بقهر على فقيده، لكنه توقف فجأة مجفلًا عندما شعر بذلك النصل البارد الذي لامس عنقه.

- أسرع، ولا تلتفت خلفك، لو أصدرت صوتًا فقط سأنحر عنقك ولن أبالي صدقني.

اتسعت عيناه بصدمة تداركها على الفور وهو يقول بثبات بينما يحاول النظر لمهاجمته في مرآة السيارة الجانبية

- من أنتِ وماذا تريدين؟

- ششش تابع طريقك نحو الصحراء أنا فقط أريد محادثتك لا أكثر فلا تدفعني لتصرف أرعن قد يودي بحياة كلينا.

لم يستطع التعرف على مهاجمته بسبب الوشاح الذي حجب وجهها إلا من عينيها، كما أن لكنتها الغريبة عن لكنة سكان بلدته لم تفته بالطبع.

هو لا يخافها بكل تأكيد، لكنه قرر الانصياع لرغبتها عله يفهم سبب ما

تفعله رغم الخوف البيّن في نبرة صوتها؛ كان الصمت رفيق طريقهما الوحيد إلا من نظرات خاطفة اختلسها للمرآة من وقت لآخر، توقف أخيرًا ليقول بنفاذ صبر...

- هل ستجيبينني الآن؟

لم تنطق، لكنها أزاحت سكينها عن عنقه وقفزت برشاقة على المقعد المجاور له، تأمل عينيها الواسعتين مختلفتي اللون بتدقيق، وهو يقسم بداخله أنه قد رأى هاتين العينين من قبل، أغمضت عينيها لوهلة وأزاحت طرف الوشاح بيدها الحرة عن وجهها بينما لازال سكينها مصوبًا نحوه، اتسعت عيناه بصدمة، إنها هي؟...

لكن كيف ؟

ظل يحدق بها وعيناه تتوحشان قبل أن يضرب يدها الممسكة بالسكين لتسقط أسفل مقعدها، فارتجفت بفعل الصدمة ومالت بجسدها تبحث عنها لكن جسدها قد تخشب عندما سمعت سحب زناد مسدسه، فرفعت عينيها نحوه وهي لا تزال على وضع جسدها المائل دون حراك بينما أغلق السيارة أوتوماتيكيًا ولازال سلاحه مصوبًا نحوها ثم هدر بها بصوت قوي... ..

- اعتدلي.

أصبحت كالفأر الذي سقط بكامل إرادته في المصيدة لم تجد بدًا من الاعتدال ومواجهته ..

- كم يشبه أخاه!

ارتجفت رغمًا عنها عندما قاطع تأملها المرتعب به وهو يقول:

- أنتِ رؤى أنا أعرفك جيدًا، لكن كيف؟ أنا بنفسي دفنت جثتك منذ أيام؟

احتضنت نفسها بخوف وهي تحرك رأسها بنفي سريع ودموعها تلمع في مقلتيها بينما هو يتابع بغضب أعمى وهو يفتح باب السيارة:

- هيا للخارج.

أخيرًا قد وجدت صوتها، فتشبثت بمقبض الباب لا إراديًا، وهي تقول بخوف بينما تلتفت بعينيها في المكان حولهما... ..

- لا .... لا أرجوك قد تكون مراقبًا.

- ماذا؟

كان ذلك هو صوته الساخر قبل أن تستوقفه هاتفة بصدق استشعره.

- أنا لا أعلم فيما فكرت أنت، لكن اقسم لك أني لا دخل لي بذاك الحادث .

تأملها بشك بينما تابعت قائلة:

- لو كان لي يد في ذلك الحادث هل كنت لآتيك بنفسي وأحاول الحديث معك؟

نظر لها باستهانة من أعلى رأسها لأخمص قدميها .

- لا أعلم فمن مثلك قد تفعل أي شيء لأجل المال.

لم تجبه، لكنها وقفت نصف وقفة وهي تميل بجسدها على المقعد الخلفي الذي باتت فيه ليلتها السابقة متناولة حقيبة جلدية سوداء لاحظها للمرة الأولى، كان يطالعها بتساؤل سرعان ما أجابت عنه وهي تعود لجلستها السابقة فاتحة له الحقيبة بثبات ظاهري ليطالع أولها إلى آخرها.. راح عقله يدور في حلقات مفرغة متسائلًا:

- إذا لم يكن المال هدفها فلماذا خاطرت بالحديث معه؟

قاطع شروده صوتها الخافت ...

- لو كنت أريد المال لما أتيتك.
- إذاً ماذا تريدين؟

نكست رأسها والدموع تتجمع في مقلتيها ثم همست برجاء ..

- أريد هويتي؟

ظهر التساؤل على ملامحه الحائرة فاستطردت ....

- أنا كالعنقاء التي تنتظر البعث من جديد ولكن أين الرماد؟

لم يفهم معنى كلماتها رغم سنون عمره التي تجاوزت الثلاثين لذا سألها بدون تفكير ...

- ماذا تعنين؟

مدت يدها في الحقيبة لتخرج له هوية تحمل صورتها، لكن باسم مغاير لما رآه على عقد الزواج الذي حضره بنفسه، ثم قالت بحنان لم يغفله ...

- تلك كانت إحدى خادمات القصر، فتاة في مثل عمري وكذلك هيأتي الظاهرية، وإذا أردت أن تعرف البقية فرجاءً اسمح لي بذلك فوزرها يثقل عاتقي.

لم يشعر بنفسه أمام كلماتها ونبرتها تلك إلا وهو يومئ برأسه إيجابًا ويعيد سلاحه لموضعه، ابتسمت شاكرة قبل أن تسرح بمقلتيها في البعيد وتبدأ حديثها:

- أنا فتاة عادية مات والدها مؤخرًا بعد أن أنهت عامها الأخير في الجامعة، كالكثيرات من بنات جيلي البائسات لم أجد عملًا لألتحق به فبقيت في المنزل وحيدة أصرف من معاش والدي البسيط.

ثم أردفت:

- كانت لي جارة في نفس عمري سافرت منذ سنتين برفقة زوجها الذي يعمل في إحدى الدول العربية، جميع فتيات الحي الذي أسكن به كُنّ يحسدنها على ما آلت إليه أمورها، لأفاجأ بها تتصل بي لمواساتي على فقيدي وتدعوني للعمل برفقتها في الخارج.

كان يتابع حديثها بصمت مطبق بينما عيناه تتفحصانها بتدقيق عله يتأكد من صدق حديثها والعجيب أنه قد فعل، لكن استوقفه سؤال جعله موضع الطرح قائلًا:

- لكن الزيارة لأقارب الدرجة الأولى فكيف؟

شقت ملامحها ابتسامة ساخرة وهي تجيبه بخفوت ....

- لقد ذهبت بدعوة من رب العمل نفسه وهو يحمل جنسية البلد لذا ...

وتركت جملتها معلقة ليومئ بتفهم وهو يقول بفضول لم يحاول إخفاءه:

- وماذا حدث؟

- بعثت لي شابًا ساعدني في إنهاء إجراءات السفر، حتى تذكرة سفري لم ينسَها، بالطبع لم تفتني نظراته، لكني توقعت أنها نظرات إعجاب شاب بفتاة، ثم سافرت ليستقبلني رب عملها كما أخبرتني سابقًا لإنهاء بعض المعاملات الخاصة بالمطار، طلبت منه مهاتفتها وفعل حتى أطمئن، ثم اصطحبني لمنزل كبير لأقابلها، لكنني فوجئت بها تخبرني بلا مبالاة بأن من تزوجها كان عضوًا في جماعة تعمل في الدعارة الدولية، وبمجرد وصولهما طلقها وتركها في عهدتهم، أخبرتني عن الرفاهية التي تعيش بها ورغبتها في انضمامي لها.

اتسعت عيناه بصدمة، لكنها لم تنتبه لصدمته وتابعت .....

- بالطبع رفضت وقررت الانصراف واللجوء لسفارة بلدي، إلا أنني فوجئت به يلوح أمامي بثبات بورقة كانت صك عبوديتي الذي كنت قد وضعت عليه إمضائي بحماس، كنت أظنه مجرد إجراء للسفر، لكنه نص على أن ذلك البغيض هو كفيلي ولا يحق لي التصرف دون الرجوع إليه، بكيت وتوسلت وامتنعت عن الطعام لكن بلا طائل.. حتى أتى يوم وجدت ذلك المقيت يستدعيني، لم يكن الرفض رفاهية لمثلي فساقني أحد رجاله كالشاه نحو بهو محبسي الكبير لأجد شابًا يقاربك شبهًا ينتظرني بصحبته.

قبض على كفها المتوسد حجرها بانفعال لم يقصده قائلًا بغير تصديق :

- أتعنين أن أخي كان يتردد على أماكن كتلك؟

إيماءة تبعتها بابتسامة ساخرة وهي تستحضر ذكرى أول لقاء جمعها بعمار .....

دلفت للغرفة بعد ما دفعت ذلك البغيض بنية الاعتراض تمامًا ككل مرة.. طالعت نخاسها يجلس بأريحية وأمامه شاب في نهاية العشرينيات على ما يبدو، لكن علامات البذخ والثراء ظاهرة عليه بلا التباس، احتضنت نفسها لا إراديًا علّها تواري تلك القشعريرة التي دبت في جسدها، كان يتأملها بغرور فطري وأريحية مغيظة قبل أن يشير لنخاسها بالانسحاب، وكذلك فعل !

انكمشت على نفسها متراجعة حتى التصقت بباب الغرفة الموصد خلفها بينما هب من مقعده وبدأ يقترب منها كفهد يهم بالانقضاض على فريسته،

ابتلعت ريقها بخوف وانسابت دموعها على وجهها لتقول بصوت متحشرج من أثر البكاء :

- أ..... أرجوك سيدي أعدني لبلدي، اعتبرني أختك هل تقبل أن يمسها رجل لا تحل له ؟ "

رفع إحدى حاجبيه من جرأتها ثم قرر التسلية قليلًا فقال بصوت خافت مميلًا بجسده عليها كأنه يخبرها سرًا .....

- لا أخت لي.

- أرجوك.

رجاؤها الباكي وذراعاها الملتفان حول جسدها بحماية جعلاه يسألها بشك ....

- هل تعنين أنكِ بتول؟

أومأت برأسها بسرعة رغم حمرة الخجل التي لم تخطئها عيناه الخبيرتان ليتفحصها بصمت لدقائق قبل أن يقول فجأة ...

- أتقبلين الزواج مني؟

فغرت فاها ببلاهة متأملة ملامحه الصارمة القريبة جدًا منها لتقول بارتباك:

- م .....ماذا ؟

التفت إليها وهو يشير بيده قائلًا بسيطرة ذكورية :

- أنا ألقي عرضي مرة واحدة إمَا قبولًا و إما ...

ثم التف ليواجهها وهو يقول مشيرًا بسبابته نحو باب الغرفة خلفها.....

- وإما أتركك له، القرار قرارك وأمامك دقيقة واحدة للرد.

هل يمزح ؟ أيخيرها بين الزواج من فارس خرج من أحد كتب الأساطير وبين حياة الظلام تلك؟

أومأت برأسها إيجابًا دون رد، غير واعية لتلك النظرة الظافرة التي ارتسمت على محياه، متناسية تمامًا سؤالًا كان يجب أن تطرحه على نفسها ما الذي يدفع شابًا كامل المواصفات كذاك لعلاقات مشبوهة كتلك !!!!

قاطع ذكرياتها صوته وهو يقول بفخر لم تخطئه أذنيها.....

- إذًا لقد أنقذك أخي من نهاية مأساوية مؤكدة.

ثم شرد وهو يتذكر كلمات أخيه عنها يوم عقد قرانهما الذي لم يحضره سواه ومدير أعماله وصديقين له كشهود، يومها سأله بجدية إن كانت تلك إحدى نوبات تمرده على جده، لكنه نفى ذلك بصرامة مؤكدًا له أنه يود تأسيس أسرة وحياة مستقرة كما أن من هم في مثل عمره لهم الكثير من الأبناء، لم يجد وقتها بدًا من دعم أخيه الذي يعلم جديًا ما قد عاناه مع رجل بجلافة جده ومشاعره الثلجية التي طالما مقتها....

قاطعته بابتسامة ساخرة:

- لا تأمَل كثيرًا عزيزي فكم من جلّاد رسم دور الضحية ببراعة.

عقد بين حاجبيه بشك وهو يقول ..

- ماذا تعنين؟

- ستعرف.

ثم استطردت ....

- بعد أن انصرف الجميع قبض على يدي بعنف أجفلني وهو يسحبني

خارج المنزل، تحديدًا نحو غرفة ملحقة بحديقة القصر، تأمّلت المكان حولي بصعوبة مع تلك الإضاءة الحمراء الخافتة، كانت غرفة كبيرة جدرانها سوداء ودرجة المكيف بها أدنى من المعتاد، لذا دبّ الرعب بأوصالي وأنا أتأمّل محتوياتها!

متى ستكف تلك المرأة عن قول الألغاز، هكذا فكر، لكن جاءته الإجابة أسرع مما توقع عندما وصله صوتها المرتجف وكأنها تذكرت شعورها السابق....

- وقتها عرفت أن فارسي المغوار ما هو إلا رجل مريض، ساد النزعة، هيّأ تلك الغرفة ذات الجدران الكاتمة للصوت وملأها بأدوات تحقق متعته الجسدية المتطرفة، وعندما سألته بخوف بعد ليلتنا الأولى الدامية لماذا اخترتني؟

أجابني ببرود:

- أنني كنت فرصته للتمرد على جده وإخماد الشائعات التي تناثرت حول كونه لا يقرب النساء ولم يعرف أحد بعلاقاته كأمثاله من نجوم المجتمع المخملي.

تحوّلت عيناه للون الأحمر تزامنًا مع جحوظهما الواضح من شدة الانفعال إلا أنه لم يستطع أن ينكر اطمئنانه على حال أخيه عندما علم بإقباله على الزواج رغم سرعته وقد لاحظ عليه العديد من الأعراض التي تغاضى عنها؛ فتلك الحادثة التي شهدها بنفسه في مراهقتهما لن ينساها ما حيي، حيث رأى أخاه يخنق إحدى القطط مستمتعًا بصوت موائها المستغيث بينما عيناه تبرقان بنظرة أثارت الرعب في نفسه، إضافة إلى عدم شعوره بالذنب أو تأنيب الضمير على أخطائه، وأيضًا حبه للسيطرة ووسوسته القهرية بالنظافة والتنظيم، الذين صاحبهم معاملة سيئة لخدم القصر أمام الآخرين وتعمّد تهديدهم، كل تلك اللمحات السابقة كانت تتواصل في عقله دون هوادة، نعم شك في طبيعة أخيه العنيفة، إلا أنه لم يتوقع أن يصل الأمر لتلك

الدرجة، اعتصر عينيه بغضب أعمى وهو يعي للتو أنه للأسف يصدقها .. ثم قطع صمته وهو يقول بصوت لا حياة فيه .....

- تابعي؟

استندت برأسها على المقعد مغمضة العينين بينما صوتها يصله كمن قدم من واد سحيق...

- لاحظت أن صراخي كان فيه متعته المتطرفة لذا حرمته منه ليتوقف عما يفعل، كنت أتناول مخدرًا قبل الذهاب معه للغرفة كي لا أشعر بما يفعله بي وقتها؛ كان ينفعل ويتمادى في تصرفاته المريضة حتى أنني كنت أخرج من الغرفة دامية الجسد.

- وماذا عن وجهك؟ لم ألاحظ عليه أيه علامات للتعذيب.

أومأت إيجابًا وهي تجيبه بموضوعية:

- لكي لا يعرف أحد ما كان يفعله بي.

أومأ لها بصمت قبل أن يقول ...

- وماذا فعل عندما لم يجد عفوًا متعته معك؟

حركت كتفيها بلا مبالاة....

- لم يعد يقربني وكم كنت ممتنة لذلك خاصة أني زوجته ببلد غريب، له فيها نفوذ وعلاقات كما أنه ابن من أبنائها أما أنا فلا، لذا لن ينقذني أحد أو يستمع لي.

رغم ضيقه الواضح من استسلامها، وخضوعها إلا أنه أومأ بصمت، لكنها قرأت سؤاله في عينيه فاستطردت....

- كان يحضر العديد من النساء ويخبرني باستمتاع أنني لا أرضيه كما يفعلن هنَّ، لم أبالِ ، بل في الواقع كنت أشعر فقط بالإشفاق على من تقع بين براثنه، حتى اختفى فجأة يومين كاملين دون أي خبر عنه، لن أنكر راحتي فى غيابه لكن ما حدث بعدها طغى على كل راحة.

ثم عادت بذاكرتها لذلك اليوم الذي نالت فيه حريتها وخسرت هويتها....

فتح باب الغرفة دون طرق، توقعته زوجها الذي لا يهتم بالذوق ولا قواعده لتفاجأ بمدير أعماله، همّت بتوبيخه على فعلته إلا أنه اقترب وأمارات التوتر بادية على ملامحه ثم قال:

- أتركي كل شيء الآن، فسيدي وجد قتيلًا.

ثم وضع حقيبة جلدية سوداء على الطاولة أمامها وفتحها قائلًا:

- خذي تلك النقود وكذلك تلك الهوية وهذا الجواز وعودي لبلدتك الآن.

طالعت صورتها بأنامل مرتعشة على جواز سفر باسم ليس لها، ثم قالت :

- مهلًا .. أليس ذاك هو اسم الفتاة العاملة في القصر؟

همت بسؤاله، لكنه دفعها للخارج مقاطعًا تساؤلها.

بعد أن ابتعدت عن المنزل لمحت حريقًا مهيبًا شبّ في غرفة الإعدام خاصته .....

الصمت كان جوابها بعد أن عادت من ذكرياتها، بينما هو كان في صراع تلاه صدمة توسدت ملامحه بأريحية وبدأ صدره يعلو ويهبط، كأنه في إحدى سباقات العدو؛ ثم قطع صمته قائلًا بصوت لاهث :

- هل تعنين أن نايف هو من قام بتلك الفعلة ليتخلص منه، لكن لم؟ لقد

كان دومًا خادمه المطيع.

ثم ضرب رأسه براحة يده وهو يتذكر طلبه الأخير بالابتعاد بعد أن فقد رب عمله معلّلًا أنه لن يعمل مع سواه، لقد اختفى منذ تلك الليلة ولم يعد بعدها لذا قال بانفعال .....

- ماذا سنفعل؟ كيف سنعيد رمادك يا سيدة عنقاء وقد اختفى ذلك اللعين؟؟

برقت عيناها بإصرار قائلة:

- لكن تسجيلات الغرفة لن تختفي فلا يعلم أمرها غير أخيك الذي لم يمنح ثقته الكاملة لأي شخص.

قبض على ذراعيها بانفعال وهو يقول بغضب لم يستطع كبحه ...

- هل تعنين أن أخي كان يصور تلك الأفعال المشينة.

أخفضت رأسها وحرّكتها إيجاباً دون كلمات فاستطرد بتساؤل .....

- طالما أخي لا يثق بأحد فكيف عرفت أنت بموضوع التسجيلات.

رفعت عينيها الغريبتين نحوه بإصرار قائلة:

- لاحظت أنه يتسلل من الفراش بعد نومي عندما يكون القصر غارقًا في سكون قاطنيه لذا تتبعته إلى الغرفة التي تحت السلم حيث لا يدخلها سواه.

ثم تابعت...

- ستجد مفتاحها في سلسلة مفاتيحه التي لم تكن تفارقه.

هدر من بين أسنانه .....

- أولًا تعلمين أنها قد ذابت بفعل النيران تلك الليلة !

- لكنك تستطيع كسرها إن أردت.

إجابتها السريعة الواثقة جعلته يطالعها بغموض قبل أن يرفع هاتفه ويطلب رقم ما وبعد أن أنهى اتصاله التفت لها قائلاً بإرهاق لم تغفله ....

- سننتظر هنا للمساء وسيقابلنا عامل النجارة حينها عند باب القصر الخلفي.

وقفا أمام باب الغرفة المفتوح بعد انصراف العامل بتردد .. يناظران بعضهما البعض ثم يوجّها نظراتهما نحو الغرفة التي فور إضاءتها ظهر لهم عددًا من الأجهزة وشاشة ضخمة معلقة فوق الحائط؛ ابتلعت ريقها لكنها حسمت أمرها قاطعة ترددهما معًا وهي تدلف للغرفة التي أغلقها عمر خلفهما بهدوء، كان يتأمل ظهرها وهي تعبث بأناملها برشاقة على جهاز الحاسوب المتصل بالشاشة ليقول بدهشة :

- كيف عرفتِ استخدام تلك الأشياء؟

ابتسمت له لأول مرة رغم ما يعتمل بنفسها ابتسامة صادقة وهي تقول:

- أنا خريجة حاسبات ومعلومات ثم عقبت قائلة ليس بالأمر الجلل.

أنهت ما تفعل وهي تبتعد ممسكة بجهاز التحكم عن بعد حتى توقفت فجأة وهي تطالع التاريخ في أعلى الشاشة لتقول بحماس .....

- هذا هو تاريخ الحادث.

بدأت في تسريع اللقطات حتى لمحت باب الغرفة يفتح ويدلف منه زوجها برفقة سيدة يبدو من هيئتها أنها من سيدات المجتمع المخملي، لم تعِ للصدمة التي ارتسمت على ملامحه وهو يتأكد من هوية المرأة ليصرخ قائلًا...

- إنها زوجة أشهر رجال الأعمال الذين نتعامل معهم.

أومأت بصمت وهي تحاول تدارك حرجها بينما تتابع المشاهد المشينة أمامهما على الشاشة، وكلما ازداد ارتفاع حاجبيه مما يفعله أخوه زاد تورد وجنتيها، لكنها لا تملك حقّ رفاهية الخجل في تلك اللحظة، لذا توقفت عندما شاهدت المرأة تدفعه عنها بعنف وهو مصر على تقييدها، صراعات من الطرفان أنهتها هي وهي تسحب أحد الأسياخ الحديدية وتغرزه بعنف في صدره، لاحظا الصدمة المرتسمة على وجهها وهي تتنقل ببصرها ما بين جثته وسلاح جريمتها الذي ألقته بخوف وهي تجلس القرفصاء ملتصقة بأحد الجدران تنتفض رعبًا ولا يستر جسدها شيء.

بعد فترة هدأت قليلًا لتزحف على ركبتيها حتى وصلت لحقيبتها فأخرجت هاتفها وطلبت رقمًا ما ثم تحدثت باقتضاب ومن ثَمَّ أنهت مكالمتها وارتدت ملابسها، دقائق ودلف من توقعا تمامًا "نايف" حديث قصير تبعه خروج المرأة راكضة وهو يغلق باب الغرفة خلفها كأن شيئًا لم يكن، ساعات طوال تلتها حتى توقفت عن تسريع الأحداث وهي تلاحظ دلوفه ساحبًا تلك المسكينة التي شهقت وهي تلتفت تداري وجهها بين راحتيها عندما طالعت سيدها المضرج بدمائه وقبل أن تزيح يديها أصابتها رصاصة غادرة من سلاحه الكاتم للصوت واستقرَّت في صدرها، وسقطت صريعة بجوار سيدها، بينما ألقى سلاحه بجوارها وأخذ في نثر السائل سريع الاشتعال ثم تلاه بعود ثقاب وعندما أنهى ما بدأه، التفت مغادراً.....

بعد أيام

خرجا من المخفر بعد الاطلاع على التسجيلات وانتهاء التحقيقات الخاصة بالقضية وقد تم القبض على السيدة، ووعد الضابط المسؤول بالوصول للجاني بعد أن علموا بمغادرته للبلاد، التفتت له بعينيها ورمقته بنظرة امتنان لم يعرف على إثرها هل من حقه أن يسعد بها بعد ما فعل أخوه، لكنه بادلها الابتسام على أية حال وهو يقول .....

- ما خطتك الآن؟

ترقرقت الدموع في مقلتيها وهي تنظر لجواز سفرها الذي تحصلت عليه أخيرًا، بعد أن أهدت السلام للمسكينة في مرقدها لتقول بلهفة لم يعرف سببها .....

- سأعود لوطني.

فأخذت عيناه تتأملان الراحة البادية على ملامحها المرهقة ثم قال:

- تستطيعين العمل معي إن أردتِ.

حركت رأسها نفيًا وقد اتسعت بسمتها لتشمل وجهها كله ...

- لا ...، لقد تعلمت الدرس هذه المرة ولن أكرر خطئي، أن أجوع في أمان بلدي لأهون عليَّ من أن أعيش بلا حقوق في بلد غريب.

مد يده مصافحًا يدها فقبضت عليها بامتنان وابتسمت قائلة :

- أشكرك لأنك أهديتني رمادي الذي سأنبعث منه بعد طول رقاد.

بادلها الابتسامة قائلًا وهو يشد على يدها ..

- بل أنا من أشكرك يا عنقاء نفضت عني رمادًا تدثرت به لسنوات طوال .

همت بإيقاف سيارة أجرة، لكنه لم يمهلها قائلًا :

- سأقلك إلى المطار.

لكنها أبت واستوقفته بإشارة من يدها وهي تجيبه ولازالت محتفظة بابتسامتها ...

- لا.

عقد حاجبيه باستفسار أجابت عنه على الفور بخجل فطري أصبح لها كامل الحرية في التمتع به أخيرًا.....

- شكرًا على التذكرة، لكني لا أحب لحظات الوداع لذا ...

ثم استوقفت سيارة أجرة لمحتها بينما كانت تحادثه، فتحت باب المقعد الخلفي وقبل أن تجلس التفتت له تستكمل جملتها المعلقة .....

- إلى اللقاء .

واختفت داخل السيارة دون انتظار رده، غافلة عن نظراته التي كانت تشيعها بأمل بينما يهمس هو:

- إلى اللقاء قريبًا جدًا سيدتي العنقاء !

تمت بحمد الله.